الأستاذة: نور الهدى غرابة الفوج: الثاني السنة: ثالثة ليسانس

الدرس الرابع: مناهج المستشرقين " المنهج التاريخي"، المنهج التحليلي"، "المنهج الاسقاطي"، "منهج الأثر والتأثر"، "المنهج التحليلي".

يعود هذا التوجّه إلى قرون عديدة، حيث بدأت دراسة الشرق على يد علماء غربيين مهتمين بالتحليل ودراسة النصوص التراثية وبعض جوانب الحياة في البلدان الإسلامية. قد يكون الدافع وراء ذلك متنوعًا، فمنهم من دخل هذا المجال بدافع علمي بحت رغبة في التعمق في ثقافات متميزة وغير مألوفة، بينما تأثرت جهود البعض الآخر بمصالح سياسية واقتصادية تنبع من علاقة الغرب مع الشرق، خاصة أثناء فترات الاستعمار الأوروبي .تتنوع مناهج المستشرقين بين التحليل التاريخي والبحث النقدي ودراسة المصادر الأصلية للغات الشرقية. وتميزت هذه المناهج باستخدام أدوات بحث دقيقة ومتنوعة تتراوح بين الفيلولوجيا (دراسة النصوص واللغات) والتحليل الثقافي والفكري وحتى المقاربات الأنثروبولوجية لفهم البيئات الاجتماعية والسياسية للمجتمعات الشرقية. وعلى الرغم من تأثيرها الكبير وتوسيعها لمدى المعرفة حول الشرق وثقافاته، إلا أن دراسات المستشرقين لاقت بعض الانتقادات التي طرحت تساؤلات حول موضوعيتها وانطلاقه الأطروحات والأهداف الكامنة خلف بعض أعمالهم .يمكن القول إن منهجيات المستشرقين تمثل جزءًا متشعبًا ولا يزال مثيرًا للجدل داخل إطار الدراسات الأكاديمية. ومع تحول الزمن وتغير الظروف التاريخية والسياسية، أصبحت دراسات الاستشراق مجالًا قابلاً للتطوير وإعادة النظر العلمية حتى يتم تحقيق فهم أكثر إنصافًا واستدامة للعوالم الثقافيّة المختلفة.

1) المنهج التاريخي:

لمنهج التاريخي الذي اتبعه المستشرقون يُعبّر عن مجموعة من الأساليب والمقاربات التي استخدمها هؤلاء الباحثون في دراسة التاريخ، خاصة تاريخ العالم الإسلامي وثقافته. يعتمد هذا المنهج بدرجة كبيرة على التحليل النقدي للمصادر التاريخية، سواء كانت نصوصًا مكتوبة أو آثارًا مادية، مع التركيز على إعادة بناء الوقائع التاريخية ومحاولة فهم الأحداث في سياقاتها الزمنية والثقافية .غالبًا

ما يسعى المستشرقون من خلال هذا المنهج إلى تتبع تطور المجتمعات الإسلامية ومظاهرها الثقافية والفكرية، واستكشاف تفاعلها مع الحضارات الأخرى. إلا أن بعضاً من هذه الدراسات تعرضت للانتقاد بسبب اعتمادها أحيانًا على أحكام مسبقة أو تأويلات قد تُبعدها عن منطقية النتائج العلمية . مع ذلك، لا يمكن إنكار أهمية ما قدمه المستشرقون في مجال البحث التاريخي، حيث أسهموا في تحقيق واكتشاف العديد من المخطوطات والوثائق المهمة، ما فتح آفاقاً جديدة لفهم التاريخ أما الفهم الاستشراقي للمنهج التاريخي، فإنه " يقضي على وحدة الظاهرة واستقلالها ويرجعها إلى عناصر مادية وإلى عوامل تاريخية مع أن هذه العناصر المادية إن هي إلا عوامل للفكر وليست مصدرا لموضوعاته فالطبيعة لا تنتج فكرا"[1]

المنهج التاريخي لتحقيق نجاح فعّال في دراسة السيرة النبوية أو أي سيرة تاريخية أخرى يعِتمد على استيفاء ثلاثة شروط أساسية .

أولاً، ضرورة التوثيق الدقيق للمصادر والمراجع التي تعتمد عليها الدراسة، حيث ينبغي أن تكون هذه المصادر موثوقة ومعتمدة من قبل أهل الاختصاص لتجنب الأخطاء أو الالتباسات.

ثانيًا، تحتاج الدراسة إلى التحليل النقدي الموضوعي للأحداث والشخصيات المعنية، مما يستوجب قراءة الوقائع في سياقاتها الزمنية والاجتماعية بشكل عميق ومتأنٍ.

ثالثًا، لا بد من الربط المنهجي بين الماضي والحاضر، بحيث يتم استخراج الدروس والعبر وإظهار مدى تأثير الأحداث التاريخية على الواقع الحالي، مما يُثري الفهم ويزيد من قيمته التطبيقية والمعرفية.

"يقوم المنهج التاريخي بالرصد الموضوعي الوضعي للظاهرة دون تنقيب عن الأصول في الوعي والشعور، وهو ما يستبدل ظاهرة مادية بأخرى مثالية وشعورية، ويفتح الباب لردها إلى علل آلية، وهو تفريغ للفكرة من محتواها المثالي"[2]

---

[1] **حسن حنفي**، التراث والتجديد، ص 94.

[2]

2) المنهج التحليلي:

يتبع هذا المنهج استراتيجيات تقوم على تفكيك الظاهرة المعقدة إلى مكوناتها الأساسية، بهدف فهم تلك الأجزاء بشكل واضح وإصدار أحكام دقيقة عليها. تتمثل ميزة هذا النهج في تجاوز النظرة الإجمالية للحكم على الظواهر، حيث يتيح رؤية أجزائها بدقة وتفصيل .فكل كيان شامل هو نتيجة اتحاد أجزاء متعددة، ولا يمكن إصدار حكم موضوعي على الكل دون معرفة تفاصيل هذه الأجزاء.

العقل البشري، كالجسد، يتكون من أجزاء مترابطة .وبالمثل، فإن الحضارة الإسلامية تتألف من علوم متفرقة، وكل علم يتفرع إلى موضوعات، كما أن كل موضوع ينقسم إلى قضايا أصغر . لكن التفكك المفرط لهذه المكونات يمكن أن يؤدي إلى فقدان الرؤية الشاملة. فالحضارة تمثل غاية كبرى، لا يمكن اختزالها إلى عناصر مجزأة مثل مفاهيم التوحيد في علم أصول الدين أو المصلحة العامة في أصول الفقه أو الحكمة في الفلسفة أو الكمال في التصوف وطبقا لهذا المنهج يصبح العنصر الديني، مع أنه الدافع الأول لتكوين الظاهرة عنصرا مساعدا لبقية العناصر ضامرا، متقوقعا ، وهذا المنهج مخالف لطبيعة الظاهرة الفكرية المدروسة التي تكونت أساسا من تحويل النص الموحى به الى معنى و المعنى الى بناء نظري[3].

الغرب من جانبه يفتخر بتطوير المنهج التحليلي منذ ديكارت، الذي وضع التحليل كقاعدة ثانية بعد الحدس وقبل الترابط والمراجعة ضمن منهجيته العقلية. ورغم محاولات الغرب معالجة عيوب التحليل باستخدام منهج التكامل في علم النفس والمنهج الجدلي لفهم قوانين التاريخ، يبقى التوجه الكلي هو ما منح الحضارة الإسلامية قوتها ورؤيتها الشاملة .لذا، فإن تفكيك هذه المقاصد يفقدها تماسكها ويختزلها إلى مجرد وقائع متناثرة في صفحات التاريخ .في الغرب، جاء التركيز على التحليل لضمان صحة العموميات، سواء كان ذلك في تشريح الظواهر أو النفس البشرية أو اللغة. وقد أطلق الأصوليون على هذا المسعى اسم السبر والتقسيم بهدف تحديد العلة الفاعلة أو المؤثرة أو الملائمة من بين الخيارات الممكنة، وتجريب كل منها للوصول إلى الحكم الصحيح .بينما اعتمد اللغويون أسلوب التقسيم بحسب أنواع الألفاظ. بالنسبة للمفكرين القدماء، كان التحليل مجرد وسيلة لتحقيق

[3] حسين حنفي، التراث والتجديد، ص97،101. .

غاية أكبر. لكن استخدام بعض المستشرقين لهذا المنهج أدى إلى تشويه الصورة الإجمالية للحضارة الإسلامية عبر تفكيكها إلى أجزاء مبعثرة، مما يعكسها ككيان مفكك غير قابل للعمل، بدلاً من إبراز جوهرها كمنظومة متماسكة وحية.

3) المنهج الإسقاطي:

يتبنى هذا المنهج أسلوب إسقاط المفاهيم والممارسات التي تنتمي إلى الواقع المعاصر على الوقائع والأحداث التاريخية القديمة، بحيث تصبح هذه الأخيرة موضع تفسير وتحليل بناءً على رؤية المستشرق وخبراته الشخصية ومشاعره الذاتية بالإضافة إلى ما يعرفه عن البيئة التي نشأ فيها ومجتمعه الحالي .وبهذا الأسلوب، يتجه الباحث إلى التركيز على الصورة الذهنية التي كونها بشكل مسبق، متجاهلاً بذلك الصور الفكرية الأخرى التي قد تعارض رؤيته أو تقدم تفسيراً مغايراً لما يسعى لإثباته. في ظل هذا النهج، يجد الباحث نفسه يعمل بجد لإخضاع كل التصورات المختلفة داخل إطار فهمه الخاص، حتى وإن أدى به ذلك إلى الابتعاد عن معايير الموضوعية والتجريد العلمي[4]

تخيل المستشرق بلاشير، بناءً على رؤيته الخاصة، أن الصحابة في زمن النبي الكريم كانوا في حالة تنافس على الخلافة أثناء مرضه، واعتبر . وفقاً لزعمه . أنهم انقسموا إلى شيع وفرق تشبه الأحزاب السياسية التي نراها اليوم، حيث تتنافس تلك الأحزاب على السلطة وتتصف العلاقة بينها أحياناً بشماتة الأغلبية بالأقلية. وقد صوّر بلاشير هذا المشهد عبر تخيله لوجود حزبين متصارعين بين الصحابة؛ الأول يمثل علي بن أبي طالب وزوجته السيدة فاطمة الزهراء من جهة، والثاني يمثل أبا بكر وعمر بن الخطاب والسيدة عائشة من الجهة الأخرى[5]، ولما وقف بعض المستشرقين على

---

[4] انظر ساسي الحاج: نقد الخطاب الاستشراقي، دار المدار الإسلامي(ليبيا)، ط1، 2002م، ص169.

[5] انظر مصطفى المسلوتي: دراسات المستشرقين للسيرة النبوية"معضلة محمد" لريجيس بلاشير نموذجا، أطروحة دكتوراه، دار الحديث الحسنية(الرباط)، 1998م، 2/ 36.

كتب الأديان السابقة وتبين لهم أنَّ بعضها أُلِّف من قبل أشخاص لتحقيق غاية عندهم، أسقطوا ذلك على القرآن نفسه، فمنهم من يتخيل محمداًε رجلاً دفعته طموحاته ووساوسه في سن الكهولة إلى تأسيس دين؛ ليعد في زمرة القديسين، فألف مجموعة من عقائد خرافية وآداب سطحية، وقام بنشرها في قومه، فاتبعها رجال منهم[6]

4) منهج التأثر والتأثر:

لقد انتهج بعض المستشرقين هذا الأسلوب بشكل مكثف ومُلِح، حيث كانوا يميلون إلى الجزم بالتأثر بمجرد رصد أي تشابه بين الإسلام وغيره من الحضارات السابقة .ومن خلال هذه النظرة المتعسفة، عمدوا إلى تفسير الإسلام وكأنه مجرد انعكاس أو إفراز للحضارات التي سبقته، مما أدى إلى سلبه أي طابع إبداعي فريد أو أصالة فكرية تخُصه وحده. وقد أرادوا بذلك، من وجهة نظري، إيصال رسالة مفادها أن الصفات الإبداعية الحصرية هي ملكية خاصة للحضارات القديمة فقط دون الإسلام .يبدو أن الدافع وراء هذا التوجه هو اعتمادهم منهجاً موحداً لدراسة الإسلام كان سابقاً قد استُخدم لفهم المسيحية. ونظراً لأن هذه الأخيرة تأثرت، بلا شك، بالبيئات الثقافية والاجتماعية التي ظهرت فيها، وشهدت تطورات متلاحقة مع دخول عناصر من أديان وفلسفات أخرى إلى بنيتها الفكرية، فقد رأى هؤلاء المستشرقون أن الحال ذاته ينطبق على الإسلام، معتبرين إياه كياناً خاضعاً للشروط التاريخية والتأثيرات الخارجية نفسها وأن الحضارة الإسلامية . في أحسن أحوالها . ليست إلا شكلاً من أشكال "الهللينية"، بل إن الإسلام ذاته، هو لون جديد يجمع بين اليهودية والمسيحية[7]

مهما يكن من أمر، فإن المنهج العلمي الدقيق يرفض تعميم هذه القاعدة في كل حالة تشابه؛ إذ إن العقل البشري قد يتوصل إلى نتائج متشابهة إذا تماثلت الظروف والوقائع .وعند دراسة الأديان ذات الأصل السماوي، نجد أنفسنا أمام وضع استثنائي، حيث إن أوجه التشابه بينها تعود أساسًا إلى وحدة المصدر الذي انبثقت منه .لكن المشكلة التي وقع فيها بعض المستشرقين أنهم تعاملوا مع

---

[6] أنور الجندي: الإسلام والثقافة العربية في مواجهة الاستعمار، مطبعة الرسالة في مصر ص139.

[7] انظر محمد بن عبود: منهجية الاستشراق في دراسة التاريخ الإسلامي، مقالة ضمن(ضمن مناهج المستشرقين، المنظمة العربية للعلوم والثقافة، تونس، 1985، 1/ 353).

الأديان وكأنها كيانات منفصلة لا تربطها أي صلة، وحين جاءوا لدراستها مقارنةً ببعضها البعض، سمحوا لمخيلاتهم ببناء إجابات على أسئلة مستندة إلى تصورات سطحية مسبقة، من قبيل: من الذي تأثر بمن؟ وما هي الأدلة على هذا التأثر؟ وهكذا، بدلاً من أن تُعتبر أوجه التشابه بين الأديان عنصرًا يوحدها ويردها إلى أصلها المشترك، مما يعزز غايتها السامية في إيصال الهداية للإنسانية، أضحى الأمر على يد المستشرق أداة لتبرير سطو فكري يلجأ من خلاله إلى تفريغ الإسلام من جوهر رسالته، مُرجِعاً إياه إلى مصادر خارجية كالديانات النصرانية أو اليهودية أو المجوسية أو البوذية أو حتى الثقافة البابلية القديمة[8]

5) منهج المطابقة والمقابلة:

اعتمد بعض المستشرقين على هذا المنهج في تحقيق النصوص التراثية ونشرها، وتميزوا فيه بشكل لافت لا يمكن إنكاره من قِبَل المنصفين. فقد أخرجوا العديد من الكتب التي لم تكن لتصل إلى النور لولا جهودهم، ومما أسهم في نجاحهم إتقانهم لعدة لغات ومعرفتهم العميقة بها[9]

وكذلك قاموا بالاطلاع على آلاف النسخ المخطوطة، وسافروا للإشراف عليها مباشرة، ولا يجدر بنا أن نحدّ من الإشادة بجهودهم في هذا المجال .فقد بذلوا قصارى جهدهم لحفظ تلك المخطوطات وحمايتها من التلف بعناية كبيرة، كما عملوا على تنظيمها بفهرسة دقيقة تتيح وصفاً شاملاً لكل مخطوطة .وبهذا الجهد الكبير أصبحت هذه الكنوز العلمية متاحة للباحثين دون أي إجراءات معقدة . يقدر عدد المخطوطات المفهرسة في جامعاتهم بمئات الآلاف[10]، لكن هذه الطريقة لم تخلُ من الأخطاء، إذ حاول بعضهم تحريف تلك النصوص لتتناسب مع قضية يؤمن بها ويسعى لتكريسها[11]

---

[8] نظر عبد الله النعيم: الاستشراق في السيرة النبوية، مرجع سابق، ص 34.

[9] انظر زهران البدراوي: الاستشراق المشبوه، مجلة المنهل(جدة)، العدد(534)، آب 1996م.

[10] انظر محمد فتح الله الزيادي: ظاهرة انتشار الإسلام، المنشأة العامة للنشر(طرابلس)، ط1/ 1983م، ص 110، وحمود حمدي: الإسلام والغرب، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية(القاهرة)، ص20.

[11] ينظر:ساسي الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي، دار المدار الإسلامي(ليبيا)، ط1، 2002، ص171.